بقايا الفصاح

بقلم : شفيق جبرى

جاءتنى نسخة من معجم الأصول العربية والأجنبية للعامية المغربية ، وهو من مطبوعات وزارة التربية فى المملكة المغربية . ولما كنت مولعا بتتبع ألفاظ العامة التى ترجع الى أصل فصيح تصفحت هذا المعجم الذي صدر بمقدمة للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله (2) أستاذ الحضارة والفن فى جامعة القرويين وجامعة محمد الخامس ، أشار فيها صاحبها الى اشتراك اللغتين العامية والفصحى فى بلاد المغرب فى اكثر الأصول والقواعد ، حتى فى القلب والابدال والتسهيل والترخيم والنحت وغير ذلك ، وضرب الأمثال لهذه الوحدة الاصيلة فدلت المقدمة على سعة الاطلاع فى هذا الباب .

لقد مررت فى المعجم بألفاظ تقع على ألسن العامة فى بلادنا ، فى جملتها : البهدلة والتشليح والكورجة ونظائرها ، ورجعت الى الفيروزابادى للوقوف على معانى البهدلة والتشليح ، فوجدت أن البهدلة انما هى الخفة والإسراع فى المشى ، الا أن صاحب المعجم الذى نقلت عنه هاتين المادتين قال فى معنى البهدلة : التنقص للاعراض والتحرش ، وقد استند فى ذلك الى التاج ، ثم قال : والمعروف عند عامة المغرب والشام أن المبهدل هو المستقذر لعدم انتظام لبسه أو مشيه أو عمله ، وقد اعتمد فى ذلك على المتن ، وقال : بهدله، احتقره ، فى المغرب وبعض أقطار الشرق كمصر .

من عادتى اذا وقعت على أمثال هذه الالفاظ العامية أن أفتش عن نص فى كتبنا القديمة وردت فيه لأن الاستشهاد بالنص أقوى ، الا اننى لا أعرف حتى هذه الساعة نصا جاء فيه كلمة البهدلة بمعناها العامي (3) وهذا لا يمنعنى من الاعتراف بقوة هذا اللفظ وأثره فى لغتنا العامية .

لا نجد فى أحاديثنا العامة للفظ البهدلة المعنى الذى ذكره الفيروزابادى ، أى الخفة والاسراع فى المشى ، وكذلك لا نجد له المعنى الذى أشار اليه التاج ، أى التنقص من الاعراض والتحرش ، وانما معناه ما ذكره صاحب معجم الأصول العربية والأجنبية للعامية المغربية اذ قال : والمعروف عند عامة المغرب والشام أن المبهدل هو المستقذر لعدم انتظام لبسه أو مشيه أو عمله ، وبهدله : احتقره ، فى المغرب وبعض أقطار الشرق كمصر .

هذه المعانى الاخيرة هى التى ثبتت فى لغة العامة لهاتين المادتين : البهدلة وبهدله ، وليس من الضرورى أن تحافظ الألفاظ على معانيها القديمة ، ففى لغتنا ألفاظ كثيرة انتقلت من معنى الى معنى على ترادف

---

(1) مجلة المجمع العلمى العربى (الجزء الرابع ـ المجلد التاسع والثلاثون) .

(2) الكتاب كله من تاليف الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله

(3) وردت لفظة بهدلة في لطائف المنن للشعراني (ج I ص 175) مما يدل على انها كانت مستعملة بمصر في القرن العاشر الهجري (المؤلف) .

السنين . فالعامة تتصرف فى الألفاظ تصرفا غريبا . فقد تنقل معنى المادة من وجه خاص الى وجه عام أو من وجه عام الى وجه خاص ، أو تقضى على بعض المصادر وتبقى على بعض الى غير ذلك من الامور التى لا يغفل عن الاشارة اليها علماء اللغة ، ففى مضارع فرغ وجهان ذكرهما المبرد فى كامله . تميم تقول يفرغ بفتح الراء والمصدر فراغ ، وأهل العالية وهم قريش ومن والاها يقولون يفرغ بضم الراء والمصدر فروغ ، فمادة : فرغ واحدة فى أصلها ، الا أن العامة جعلت لكل مصدر من المضارعين معنى خاصا ، فالفراغ معروف معناه ، فانا نقول فى أحاديثنا : أوقات الفراغ أما الفروغ فقد نقلته العامة فى لغتها الى وجه خاص . من اصطلاحها فى هذا الباب : فروغ يد ، ومعنى هذه العبارة ما يدفعه الرجل الى صاحب دكان اذا طلب إليه أن يخرج من دكانه ليحل محله . فهم يقولون فى هذا الوجه : فروغ يد ولا يقولون : فراغ يد ، كما أنا لا نقول : أوقات الفروغ ، من ذلك يتبين لنا أن مصدر يفرغ بفتح الراء حل محلا وان مصدر يفرغ بضم الراء حل محلا آخر ، وكل واحد منهما يختلف عن الآخر فى معناه والأصل واحد .

لنرجع بعد هذا الاستطراد الى أصل الموضوع ، فالبهدلة انما هى من جملة الألفاظ التى نقلت العامة معانيها من وجه الى وجه وأكاد لا أعرف لفظا آخر يقوم مقامها فى قوة التأثير ، فالرجل المبهدل هو المحتقر فى كل شىء ، ولا يسد لفظ المحتقر مسده ، وكذلك لفظ : بهدله أى حقره ، فهو أقوى فى التأثير فى لغة العامة ، حتى فى لغة الخاصة من لفظ حقره ، ولا يمر بنا يوم دون أن نسمع فيه هاتين المادتين : رجل مبهدل حكومة مبهدلة دولة مبهدلة . فالبهدلة غاية فى التحقير فى كل مظاهره .

أما المادة الثانية التى ذكرتها فى مقدمة المقال فهى : التشليح ، وقد قال الفيروزابادى فى شرحها :

التشليح ، التعرية ، سوادية ، فهو يريد بذلك أنها من لغة سواد العراق ، وكأنه يعنى بذلك انها عامية ، وقد توسع صاحب معجم الأصول العربية والأجنبية بعض التوسع فى شرح التشليح فقال : شلحه عراه ، والتشليح هو لصوصية قطاع الطريق وان كان هذا اللفظ ليس بعربية صحيحة حسب الازهرى ، وانما غلب فى بادية العراق ، وقد روى خبر موقوف عن على عليه السلام فى شأن اللصوص المشلحين ولا ندرى ما وجه تسمية بعض برابرة الاطلس بالشلوح ، اللهم الا اذا كان أهل الحواضر اعتبروهم قطاع طريق فسموهم بذلك .

وكيف ما كان الأمر فقد وردت مادة التشليح بمعنى التعرية ، وسواء أكانت هذه المادة لغة أهل القرى أم كانت لغة الحواضر ، انها قوية فى معناها ، خصبة فى دلالتها ، فانا اذا قلنا اليوم ان قطاع الطريق خرجوا على فلان فعروه ، فان قولنا هذا أضعف من قولنا : خرجوا عليه فشلحوه . فالتشليح أصبح لها فى لغة العامة حتى والخاصة معنى لا يقوم به لفظ آخر ، فما أكثر ما نسمع فى مجالسنا : التجار يشلحون فى بيعهم والحكومات تشلح الناس وغير ذلك فلو استعملنا التعرية ، بدلا من التشليح لما كان لاستعمالنا الاثر الذى نريده .

بقيت المادة الثالثة التى أتيت على ذكرها فى الصدر وهى : كورجة وقد شرحها صاحب المعجم الذى نقلتها عنه فقال : باع كورجة ، أى بلا وزن ولا كيل ولا عد ، هى تركية معناها : العمى ، ووجه الشبه ظاهر بين هذه الآفة والبيع الأعمى بدون تبصر ، وهو البيع بالجزاف .

انى أهتم بالألفاظ العامية التى ترجع الى أصل فصيح ، أما الألفاظ الأجنبية فهى ليست موضع اهتمامى ، على أن الكورجة دارجة على الألسن فى دمشق ، ولها معنيان : حقيقى ومجازى ، أما المعنى الحقيقى فهو ما دل عليه صاحب المعجم : البيع بلا وزن ولا كيل ولا عد ، وقد يراد بذلك أيضا فى لغتنا العامية بدمشق : النهب والتشليح فى البيع ، وأما المعنى المجازى فهو فى قولنا : أصبح الحكم كورجة أى لا نظام ولا قانون ، كل واحد يعمل بما يريد .

انى آسف على أن لا تكون هذه المادة من أصل عربى فصيح يمكن استعمالها فى المخاطبات والمكاتبات لأن لها فى أذهان العامة من القوة ما ليس لغيرها .